

رحلة سجين بين ثلاثة سجون !!!

أ. مصطفى بن واز

جامعة بشار

يبدو للوهلة الأولى أن مصطلح "الرحلة" لا يتماشى والسجن ذلك أن الأولى قد تكون ترفيها عن النفس، أما الثانية تضيق وتقييد لحرية الإنسان، ولكن بالنسبة لسجين يحمل قضيته في قلبه وفكره، تعد رحلة بجميع المواصفات.

إن الحديث عن هذه المواضيع يتطلب الغوص كثيرا، والتحرك ميدانيا مع من عايشوا هذا الواقع المؤلم وهو ليس بالأمر الهين، وبعد محاولات عديدة، التقيت واحدا ممن عايشوا السجن في ثلاثة أماكن مختلفة، إنه "عبد القادر بن قاسيمي" المدعو "قادة الزواوي".

لقد جرت المقابلة معه خلال شهر رمضان 1432هـ الموافق لشهر أوت 2011م، كما التقيت بمجاهد آخر يدعى "جبار محمد" والمشهور بـ"حمو ولد عبد الجبار"، لكن التركيز كان مع "بن قاسيمي" باعتباره هو السجين، كما حصلت على ورقة أرشيفية سرية تتحدث عن خلية "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" بـ"العين الصفراء" والتي كانت متابعة من قبل السلطات الفرنسية، وقد أمدني بها من كان سجيناً، وهي أرشيف ولاية النعامة، لكن لم أستطع معرفة ترقيمها.

وللتدليل على المعلومات التي حصلت عليها، حصلت على كتابين أولهما لـ "محي الدين البريزيني" والموسوم بـ"العين الصفراء مهد طفولتي"، والثاني لـ "دردور أحمد" والموسوم بـ"كتاب يومية شاهد السنوات السوداء"، وكلا الكتابين كتب بالغة الفرنسية. والإشكالية

المطروحة: هل نجحت "فرنسا" فيما كانت تبتغيه من خلال إقامة السجون والمعتقلات؟ وما النتائج التي انعكست على الواقع؟
 إن الخلفيات والخبايا التي على أساسها أقدم الفرنسيون على إقامة السجون والمعتقلات هو الإصرار على كبح إرادة الجزائريين في تحقيق حريتهم واستقلالهم.

إن سجيننا هذا من مواليد (6 فبراير 1936م) ببلدية "ايبودران" بمنطقة "القبائل"، ولم ينتقل إلى العين الصفراء إلا في 9 مارس 1952م، وقد سبقه أهله قبل ذلك.

يقول السيد "بن قاسمي": كانت البداية في 20 جوان 1956م بتفجير قنابل في أماكن عديدة من وسط المدينة، وكان رد الفرنسيين سريعا من خلال تحرك الأجهزة الأمنية التي ألقت القبض على كل مشتبه به، في ليلة (30 إلى 31 ديسمبر 1956م) قامت جماعة من المجاهدين بإحراق دكان "دللمو" "DELOLMO" (تاجر مالطي كان من المعمرين، بن قاسمي ع، 5. أوت 2011، العين الصفراء)، وبالمقابل وفي نفس الليلة أقدم الفرنسيون على إعدام عدد من المحبوسين.

ويواصل: في 11 أوت 1957 دخل الثوار والفرنسيون في مواجهة عسكرية أدت إلى إصابة عدد من الفرنسيين منهم النقيب الطبيب "رانكي" "RANKEY" و"فينالي" "VENALY" (إيطالي من الليفي الأجنبي، بن قاسمي ع، 5. أوت 2011، العين الصفراء)، وعمد الفرنسيون إلى قتل سبعة من المساجين ممن كانوا موجودين في سجن بثكنة "العين الصفراء". وكان السبب إرادة بعض المجاهدين إلقاء القبض على أحد "الحركي" ففشلوا.

في هذه الأثناء كان السيد "بن قاسمي" قد نسج علاقة مع الثوار لتدخل حياته مرحلة جديدة خاصة وأنه كان خياطا ، وطبيعي أن يحتاج إليه المجاهدون ، ومن هنا تبدأ رحلته مع السجن بداية بسجن ثكنة" العين الصفراء" ، ومرورا بسجن "سنتاكروز" بـ "وهران" ، وانتهاء بمعتقل" الدزيرة" الذي كان شاهدا على فظاعة الاستعمار الفرنسي وطرق تعذيبه. **أولا: سجن ثكنة "العين الصفراء": (3 مارس 1957م/ 12 أوت 1957م):** يقول "بن قاسمي": كانت بدايتي مع سجن بـثكنة " العين الصفراء" في 3 مارس 1957م وكانت التهمة الموجهة إلي تموين جيش التحرير بـ (600) زوج من النعال.

لقد كانت البداية صعبة للغاية ، وكان المكان موحشا ومخيفا في نفس الوقت. بالسجن بهو منفرد وغرف عبارة عن خلايا ، كما توجد به حنفيات بمياه باردة جدا خاصة وأن الجو كان باردا. إن وضع السجن بهذه الطريقة كان مقصودا للنيل من عزيمة المساجين، من خلال إهانتهم بشتى الوسائل، وللتكيل أكثر بالسجناء استخدمت فرنسا الكهرباء خاصة في المناطق الحساسة من الجسم، والضرب بدون شفقة. لأن هدف "فرنسا" كان هو استخلاص المعلومات، وهو ما عانيته كثيرا حتى الإغماء.

استمر سجنني إلى غاية 12 أوت 1957م في ظل ظروف أقل ما يقال عنها أنها قاسية ، للنيل من عزيمتنا ولكن هيهات...، وكلما زاد تعذيبنا وإيلامنا زاد الإصرار على الصبر والمحن. لأن غاية فرنسا من السجن نفسية وجسدية.

عملت فرنسا على التحجج من أجل إيجاد طريقة لتوريطي، فاستغلت عدم أدائي - حسب رأيها - للخدمة العسكرية فقررت تحويلي إلى سجن "سنتاكروز" بـ "وهران". (قلعة بنيت منذ العهد الإسباني وسميت نسبة للماركيـز "سانتاكروز"، بن قاسيمي، ع. 5 أوت 2011، العين الصفراء).

ثانيا: سجن "سانتاكروز": (12 أوت 1957/ 27 نوفمبر 1957م):

تخللت هذه الفترة محاكمتي بالمحكمة العسكرية في 28 أكتوبر 1957م وكان مقرها بمستشفى "بودانس" "BOUDENS" بوهران. كان السجن تحت الأرض مظلمًا، مقسما إلى غرف تضم كل منها من أربعة إلى ستة أشخاص، وقد اتبعت "فرنسا" معنا سياسة التجويع فتعطي خبزة واحدة لثلاثة مساجين خلال (24 ساعة ويعطى الطعام باردا وفي أوان نحاسية.

كان عملنا الأساس إفراغ شاحنات الفحم الذي كان يستخدم كطاقة، وكنا نجهل مصدر شحنه، كنا مقسمين إلى كتائب حتى تستطيع فرنسا التحكم فينا، ونتيجة لحالة اليأس والقنوط وصل الحال ببعض المساجين إلى التبول على نفسه لأيام متواصلة سعيا لإيجاد مخرج من الوضع الحرج الذي كنا فيه .

استمرت الحالة على هذه الشاكلة إلى غاية محاكمتي، وكانت المحكمة مكونة من عقيد ورواد (لا أعرف أسماءهم)، وقامت المحكمة بتعيين محام لي والذي برأني من التهمة الموجهة إلي، حيث صدر الحكم النهائي في 27 نوفمبر 1957م.

عدت إلى "العين الصفراء" وبقيت وفيها لمبادئي، ولم تفت في عضدي أي نقطة يأس، وعادت نشاطي مع الثوار في وقت أعدت فرنسا عددها وعدتها من خلال فرقة المظليين، قصد تصفية الثوار، ولكن دون نتيجة تذكر.

ثالثا: معتقل "الذيرة": (19 أوت 1960 / 6 جانفي 1961م):

الذيرة منطقة بـ "العين الصفراء" تقع إلى جنوبها بين حي "سيدي بوجمعة" (حي من أحياء العين الصفراء نسبة إلى ولي صالح) والضفة اليسرى لواد "البريج" في مساحة شاسعة ورملية جمع موقعها بين خضرة البساتين ومياه الوادي و صفرة الرمال. ويرتبط اسمها بمعتقل يسمى باسمها.

يقول السيد "بن قاسمي": يعود بناء المركز إلى سنة 1958م من طرف المهندسين الفرنسيين، وهناك من يخالفه الرأي (جبار، م. 10 أوت 2011، العين الصفراء) إذ أن إقامته جاءت بشكل ارتجالي بعد أن ضاقت أماكن التعذيب والذي كان يمارس بمنزل الجنرال " ليوتي" "lyautey" (لويس هوبير ليوتي غونزالو 17 نوفمبر 1854 في نانسي (Nancy) .
(Association nationale Maréchal Lyautey, 2007). وتعود أهمية هذا المعتقل في مراقبة حركة الثوار في غدوهم ورواحهم. وأعتقد أن قول السجين هو الأرجح.

ويواصل: كان مقتل أحد "الحركي" في "الذيرة" هو سبب إقامة المعتقل، هذا الذي كان يتمتع بموقع استراتيجي يسمح برؤية الجهات المختلفة لـ "العين الصفراء" بشكل واضح.

كان دخولي للمعتقل في 19 أوت 1960م وكان السبب لقاء بين الثوار و أحد "الحركي" في جبل "تمدة" (تمدة جبل بـ "بوسمغون" بولاية البيض حاليا. أطلس الجزائر 1980) حيث قرر هذا الحركي إصلاح جهاز الاستقبال الذي كان معطلا، فتم إيصاله إلى ألماني ليصلحه ويدعى "هانتز" "HUNTZ"، لكن اكتشاف الجهاز حرك الفرنسيين الذين قاموا بعملية اعتقال واسعة في صفوف المشتبه بهم، و تم تجميعهم وقمعهم في المكان الذي يوجد به تمثال الجنرال "ليوتي" "Lyautey" حاليا بالعين الصفراء.

إن ما كان يحدث في المعتقل لم يكن منفصلا عن وتيرة الثورة التي دخلت في مفاوضات مع "فرنسا" والتي رفضتها بعد ذلك "منظمة الجيش السري" (O.A.S) والتي انعكست سلبا على المعتقلين من خلال التعذيب الذي مورس عليهم.

ومن القيادات العسكرية التي كانت آنذاك "دوسيز" "DESEZE" (تلميذ الجنرال "ماسو" "MASSU" بن قاسيمي، ع 5. أوت 2011، العين الصفراء)، وفي هذه الأثناء التأم اجتماع بـ "الشلالة" ولاية "البيض" حاليا مع العقيد "ديكسون" بهدف تصفية الروح الوطنية من خلال تصفية عائلات بكاملها.

استمر التعذيب، ليكون الوسيلة المثلى لمعرفة أسرار الثورة، ونتيجة لهذا التعذيب الوحشي المستمر اكتشفت فرنسا أماكن السلاح وعرفت الأسماء وتم القبض على المناضلين و أوقفوا في المكتب الثاني.... هذا المكتب كان للاستتطاق والتعذيب النفسي والجسدي، كل هذا كان بداية لما هو آت...

بدأت رحلتي مع التعذيب يوما واحدا بعد إلقاء القبض علي، حيث الكهرباء بالشدة العالية، وعندما فشلوا أخذت إلى مكان حيث وضعت رجلاي في حوض مائي صغير، تفوق درجة حرارته درجة الغليان، وطبعا تطاير لحم جلدي، وبقيت معتقلا على هذا الحال تسعة أيام متواصلة، وبعد شفائي كان لابد أن أوقع على محضر حضوري كل خمسة عشر يوما إلى غاية 06 يناير 1961، علما أن المعتقل أغلق في 21 سبتمبر 1961.

يقول السيد "بن قاسمي" فاق عدد المعتقلين (250) معتقلا قضى منهم (71)، وعملت "فرنسا" على إخفاء جريماتها. ولولا تدخل أحد أعيان العين الصفراء والمدعو "حمو علا" لدى الجنرال كريبان "Crepin" الذي كان بالبليز لكانت المجزرة أكبر. هذا الجنرال طلب التحري في القضية، لكن قيادة المعتقل عملت على إخفاء الجريمة إلى اليوم وإلى الأبد... !!!

إن "فرنسا" بهذا العمل كانت تعتقد أنها تكسر شوكة الثورة والثوار وتحديث القطيعة بين الشعب وثورته و لكن هيهات...، لقد زادت الثورة صلابة وقويت شوكتها، وإن كانت "فرنسا" تعتقد أن السجن وسيلة للحصول على معلومات فقد فشلت فشلا ذريعا.

لقد كانت تتوخى من تغيير السجن عدة غايات، أمنية خوفا من التنسيق بين الثوار وانعكاسات ذلك على أمنها، نفسيا إرهاب المعتقلين، وسياسيا: تحطيم العلاقات التي كانت تتسج بين المعتقلين، ولكن ما كانت تخشاه "فرنسا" قد وقع فعلا وكان الثمن غاليا وكانت النتيجة أغلى، إنها "الحرية"...

يقول "بن قاسمي" ... عشت أياما عصيبة في "الذيرة" شتى ألوان التعذيب، وكانت تجربة السجن إيجابية رغم قسوتها ولكن شاعت الأقدار أن نمر بها.

إن الذين يرددون المثل الشعبي (اللي فات مات) أعتقد أنهم لا يدركون أهمية الذاكرة التاريخية لأن الماضي - وبكل بساطة- استشراف المستقبل....

رابعا : طرق التعذيب بـ"الذيرة"

يقول السيد "بن قاسمي": تعددت طرق التعذيب: الكهرباء، الغطس في الماء، التعليق على الأشجار واستعمال الكلاب (طرق ألمانية)، ثم هناك من يسألنا اليوم: لماذا نكره "فرنسا"؟

يقول "محي الدين بريزيني": "...لسنا في محتشدات "ريفسبورغ" بـ "ألمانيا" ولكن نحن في "الذيرة" بـ "العين الصفراء" (BERIZINI, M. (2010): 102). ويضيف بأن "الذيرة": هذا المحتشد كان يدار من طرف الرائد "دوسيز" "Deseze" والرائد "مات" "MET" قائد الأركان، والملازم الأول "جوتيي" "JUTIER" هذا الأخير كان يدير المحتشد، كان يملك حق موت و حياة المحبوسين (BERIZINI, M. (2010): 103).

ويواصل "بريزيني": "...هذا المحتشد يضم المكتب الثاني الذي يدعى المكتب السيكلولوجي، وقد كان نوعا أو شكلا من ممارسات المخابرات الألمانية بالطريقة الفرنسية حيث كان المكلفون بالتعذيب مدربين على كل أنواع التعذيب.

يسرد "بريزيني" مظاهر التعذيب قائلا:...متراكمون بعضهم فوق بعض في خلايا ضيقة حيث لا يستطيعون الحركة و الوقوف لمدة طويلة،

بدون أكل أو شرب لدرجة أن الأطراف السفلى لا تستطيع تحمل ثقل الجسم....، يجلس المعتقلون في مقاعد حديدية وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم، توجه اليهم مصابيح كهربائية قوية يتصبب العرق من جباههم لشدة الحرارة، وكل هذا لا يتوقف إلا عند المساءلة... كما كانت هناك أحواض المياه الممزوجة بالصابون و مولدات الكهرباء....والواقع أنك لو وصفت لا تستطيع أن تصف ما حدث فعلا.

ويقول المجاهد "علا بلحاج" (أحد المجاهدين الأوائل بالعين الصفراء) : أخطر ما لا يستطيعه الإنسان هو الحوض الذي كانت تملأ ثلاثة أرباع سعته، و حيث تقيد يدا المعتقل و الساقان مشدودتان إلى قضيب حديدي مرتبط بعارضة حديدية حيث النهايتان تعتمدان على أرجل حديدية ترفع المسجون تارة و تنزله أخرى إلى غاية أن يغمى عليه (BERIZINI , M.) (2010: 107).

لقد جرى التعذيب في زمن الحر الشديد، وكان الموقوفون يحملون في عربات منبطحين كي لا يعرفهم أحد. فالمعتقلون يبقون بلا شراب ولا طعام وعراة تماما. ومن أوجه التعذيب الأخرى قفز الجنود بالرجلين على صدر السجين وهو ملقى على ظهره وسبه وشمته أثناء الاستجواب وحتى ولو أجاب أو أعطى معلومة فلن ينجو من مراحل العذاب المقبلة. فكان المعتقل يربط بخشبة مصفحة إلى يديه ويلقى في حوض ماء ويغمر بالغطس ويرفع يده إذا أراد الجواب، وكان الشخص يطرح على ظهره أو صدره وتوضع حجرة ثقيلة على كتفيه أو ظهره طوال الليل ومن أسقطها ينهال عليه الحراس ضربا ومنهم من شوهد وأطرافه مكسرة.

لقد قتل - من بين من قتل - ستة عشر شخصا تحت التعذيب وكانوا يدفنون في الرمال المجاورة للمركز ولم يعثر على جثثهم لإخفاء الجريمة (بن قاسمي ، ع. 5. أوت 2011، العين الصفراء).
كان المعتقلون يجمعون فوق بعضهم البعض في غرف ضيقة حيث لا يستطيعون الحركة بل ويضطرون للوقوف وهم في حالة تعب وجوع إلى درجة أن الرجلين لا تقويان على حمل الجسم (BERIZINI, M.) (2010.106)

ومهما كان حكمنا عن فظاعة معتقل "الذيرة" نبقى بعيدين عن حقيقة ما جرى.
خاتمة:

من خلال استعراضنا لواقع هذا السجين -وطبعا لم يكن وحده- نصل إلى أن الاستعمار الفرنسي طبق نظرية الغاية تبرر الوسيلة، فالغاية تدمير السجين ماديا ومعنويا وبكل الطرق للوصول إلى مبتغاه، ولم تكن السجون والمعتقلات لتقضي على آمال الجزائريين من خلال صبرهم ومصابرتهم في سبيل الحصول على سيادتهم.

لقد سخرت فرنسا كافة وسائلها الإعلامية منها والسياسية للنيل من عزيمة الجزائريين ولكن دون جدوى. وارتكبت ألوانا شتى من العذاب وصلت إلى التتكيل والتقتيل، ويبدو أن انتشار السجون والمعتقلات في مختلف نواحي الوطن ي دلالة على انتشار ارادة التحرر على كامل التراب الوطني.

ومهما يكن من أمر ورغم التضحيات الجسام في ظل الأجواء المدلهمة بالكروب والمصائب قد تحقق المراد واستقلت الجزائر.

9 Novembre 1954

121/3

CONFIDENTIEL

Le Colonel Commandant Militaire du Territoire d'Ain-Sofra (Affaires Sahariennes)
COLONEL RECHER

Objet : Perquisitions dans les milieux M.T.L.D.

J'ai l'honneur de vous rendre compte de ce qu'en raison de la publicité donnée par la presse et la radio aux perquisitions effectuées dans le Toli et la Métropole chez les Milieux M.T.L.D., je n'avais pas l'intention d'agir de même à Ain-Sofra.

Cependant, j'ai pu constater combien les éléments noirs de la population étaient inquiets de l'absence de toute action contre les éléments séparatistes.

Aussi ai-je décidé de faire procéder par la Gendarmerie, le lundi matin 8 Novembre, jour de marché, à des perquisitions chez les personnages suivants : CHANI Ahmad, écrivain public, LILIM Mohammed Ould Mansour, gargotier, HAKKI Ahmed, Marchand de journaux, MOULAY Chérif, commerçant - ARAFI Bouziane, boulaugier - ABBAOUI Mohammed-Taki, coiffeur - BENEACI-MI Kadi, armurier.

De nombreux écrits en arabe ont été saisis chez la plupart d'entre eux et sont actuellement à la traduction.

MOULAY Chérif a été trouvé détenteur d'un revolver à canon rayé, 6/36, CHANI Ahmad de cartes d'identité ne lui appartenant pas, tandis que BENEACI Kadi ne possédait pas de registre d'armurier.

Tous ces personnages ont été gardés à vue pendant 24 heures pour enquête et vérification d'identité.

Des différentes mesures ont eu un effet psychologique indéniable et n'ont pas manqué de frapper les malfaiteurs qui se sont rendus ce jour-là au marché.

المصادر والمراجع:

- 1- بن قاسيمي عبد القادر (5 أوت 2011) العين الصفراء، من مواليد 06 فبراير 1936 وما زال على قيد الحياة، متقاعد مقيم حاليا بالعين الصفراء.
- 2- جبار محمد (10 أوت 2011) العين الصفراء، من مواليد عام 1926 وما زال على قيد الحياة، متقاعد مقيم حاليا ببشار.
- 3- BERIZINI Mohyddine, Ain sefra berceau se mon enfance et fief du nationalisme dans l'ex sud oranais édition dar el gharb, 2010
- 4-DERDOUR AHMED. Journal d'un temoin des années noires. Ain Sefra E1, 2011
- 5-Document confidentiel. Perquisition dans les milieux M.T.L.D.9 novembre 1954 .archive de la wilaya de Naama.
- 6- الأطلس العالمي، المعهد التربوي الوطني، الجزائر 1980.